انتقام الاميرال

للقصصي الفرنسي أرنست دوديه

كان القصر العتيق يجثم كالحصن الجبار فوق صخرة عظيمة هائلة على سيف البحر . وكانت الشمس حينذاك تضيف للغروب وتنحدر رويداً من شارف السماء ، إلى ما بين الأفق واليم ، وقد سالت حولها أباطح الدم ، وارتسم على جبينها الكلال والأين. ويشرف القصر أيضاً على الطريق الممتد إلى « برست » وعلى قارعة هذا الطريق تقوم الميناء وقد أطلت من ورائها سوارى السفن ومداخنها مصبوغة بألوان الشفق الزاهي الجميل ... ومن نوافذ القصر الضيقة بان البحر كأنه بساط من سندس وإستبرق تجرى عليه السفن بقلاعها التي يهدهدها نسيم الأصيل فتتموج، وتداعبها الرياح الخفيفة فتترجرج ... وتعلو من القصر المنيف قباب وأبراج شامخة في الفضاء تتحدى الزوابع العاتية والعواصف الهوجاء .. وتحف أغصان الأشجار الألفاء الوارفة بجدران تحركها الرياح العواتى فتبدو كأظفار جافة خشنة لطيف امرأة تضرب فزعا في الليل المدلهم ... وعندما غسق الليل وأجن السكون في مسوحه الطاخى الأسحم ، أرعدت السماء سحاب ثقال منشئات تحركها العواصف الهوج في شدة وعنف . وعب عباب الرياح فهاجت الأمواج الصاخبة الزبدة فراحت تصطدم بصخرة القصر الهائلة وتنحسر عنها فيسمع لها زئير كزئير الأسد وهزيم كهزيم الرعد

في تلك الأثناء كان الأميرال المركيز « دى بلك هيلوين » جالساً إلى مكتب صغير وضع عليه بضع رسائل عفى على لونها الزمن فاصفر وحال ، وبضع زهور ذاوية ونوط قلادة وشريط من الحرير الأزرق ، وبجوار هذه الأشياء صندوق صغير مفتوح من خشب الأبنوس المطعم بالعاج ، كان ولا ريب يضم تلك الآثار الغرامية المتناثرة على المكتب . وتجلت أمارات الحزن العميق على وجه الأميرال بينما لمعت عيناه فجأة ببريق الغضب المسعور

وكان الأميرال رجلا رقيق البدن واهن العظم له وجه مغضن بارز العظام ، وعينان غائرتان قد انطفأ فيهما التألق والبريق ، ويدان معروقتان عاريتا الأشاجع . وعلى الجملة كان بدنه المنهوك قد ذبل بفعل المرض الذي يفتك به فتكا ذريعاً . ولقد فقد أميرال البحر العظيم قوة العزم التي كانت تسبح ثائرة في دمه وتشع من عينيه ، وخفت فيه ذلك الصوت الجهوري المليء الذي كان يمزق العواصف ويطغى عليها . ولم تبق فيه ذرة من القوة التي طالما أعجب بها رجال أسطوله وبحارته من قبل . وأبت الجرأة والبسالة أن تسكنا ذلك الجسم الهدم الفاني ففارقتاه بعد إذ كانتا تفوران فيه فوراناً حينما كان يزخر بقوة الشباب ويموج بفتوة الرجولة . واشتد به السقام حتى صيره هزيلا ناحلا . ولم يبق عليه المرض الجاثم فوق صدره إلا ليعالج هذه الجريمة النكراء التي اكتشف الآن فقط دليلها الحاسم ، وليرى مدى قدرته على الثأر وهو من الموت قاب قوسين أو أدنى

لقد تسلم صباح اليوم رسالة من (نيس) حيث اعتاد أن يقضي فصل الشتاء من كل سنة ، يقول فيها كاتبها : « لقد خلت أربع عشرة سنة وزوجك ممعنة في خيانتك ، دائبة على العبث بشرفك ؛ وإنك وحدك الشخص الذي لا يعلم شيئاً عن علاقتها الآثمة بمساعدك السابق الكابتن « نوشيرون » . وإذا أردت على ما أقول شاهداً ودليلا فاذهب إلى مخدع المركيزة ، فهناك من ناحية رأس السرير ترى تحت إحدى الصور المعلقة خزانة في الحائط ، بها صندوق صغير . افتح هذا الصندوق واقرأ ما فيه ، فستنقشع الغشاوة عن عينيك ، وتتبين بوضوح ما غاب من بصيرتك كل تلك السنين الماضية »

وعزا المركيز هذه السعاية إلى خادم مطرود . لذلك تغضى سريعاً على ما أثاره الخطاب في نفسه من شكوك وأوهام ، وفرك الرسالة في يمناه وهم بتمزيقها لولا أن حاك الشك في صدره فأرجع الكتاب يتلوه مرة أخرى ... وللمرة الأولى في كل حياته مع زوجته تساوره الظنون والريب . وتحامل على نفسه وغادر مضجعه ، ثم راح يجر نفسه جرا ، وفي الحرز المبين في الكتاب

أنى أدلة الاتهام السود

وراح يتمثل ويعجب كيف مرت عليه هذه السنون الطوال وهو غارق فى لجج هذا الوحل دون أن يدرى ... ها هو ذا يمضى إلى مثواه الأخير تكتنفه قرائن الجريمة الدنسة التى اكتشفها اليوم فقط هازئة ساخرة ... فكيف إذن يتسنى له الثأر لنفسه من هذين المجرمين قبل أن ينطفئ سراج حياته الخافت الضئيل

يا للخيانة والغدر ! أزوجه الذى شملها بحبه ووهب لها كل قلبه ؟ ! ومرؤوسه الذى أمطره بوابل من عنايته ، وغمره بفيض من صداقته .. يا للعار ويا للدرن ! أنسى هذا السافل الخؤون ، هذا الجاحد الكنود ... أتسى كيف كان يرعاه كابنه وزيادة ؟ وهذه الشقية زوجه ؟ لا نكران أنه اقترن بها والفرق بين عمريهما جد كبير . إذ كانت فى العشرين وهو فى الخمسين ... بيد أنه ليس ثمة من ينكر أيضا أنه انتشلها من وهدات اليتم والمسغبة ، وأضفى عليها لقبه المجيد التالد وقلبها فى ثرائه الواسع وضمن لها الحماية والرعاية فى حياته ، وسيخلع عليها من ثرائه درعا يقيها من بعده عدوان الناس وغدرات الزمن . أبدا .. ما أرغمها امرؤ على الزواج منه ، بل كان هذا على اختيار منها ورغبة ... ولم يكن يوما لينى عن تلبية رغبة لها مهما صعبت وشقت . فالصيف فى الريف الجميل الساحر ، والشتاء فى أرفع فنادق باريس الفواخر . أو إذا شاءت فى قصره العظيم فى « نيس » . فى كل حفل كانت تبدو زينة الأتراب والصواحب ، وفى كل جمع كان يعلو بها اسم زوجها إلى أرفع مكان وأسمى منزلة بين سائر الفتيات والعقائل . وبينما كان يثق فى وفائها وإخلاصها ويعجب بجمالها وفتنتها وبقيه لسحرها وأنوثتها ، إذا هى تخونه وهو لا يدرى

لقد خدم بلاده أربعين سنة سويا . حارب فى أفريقيا وفى المكسيك ، وحاز أرفع القلائد والأوسمة ، وجلب المجد والفخار لابنه ... ثم ماذا بعد كل تلك الحياة الحافلة بجلائل الأعمال وطيب المآثر ؟ عار تجلبه عليه هذه المخلوقة الشقية وهو من الموت على شفا جرف هار

وليت الأمر قاصر على هذا فحسب ، بل جرته إلى شك مظلم يتخبط فيه حتى ليكاد يذهب عقله فيمضى إلى زمسه مخبولا . ابنه « باتريك » زهرة آماله وعمره الثانى ... ابنه هو ، أم ابن غريمه فوشيرون ؟ باتريك . لقد شب ونما فى قصره المتيد حيث تقضى أمه كل شتاء وحيث كان يذهب هو ليعانقه ويتملى من رؤيته . إنه يبدو قويا كغصن شامخ فتى ، ويتجلى الزهو والكبرياء فى نظراته ، ويبدو السلف والخيلاء فى افتتله ، وتنطلق ملامح وجهه بقوة العزم وشدة المراس . يالله من إله صغير من آلهة القوة والجمال ! خير خلف لأشرف سلف . ومما زاد الرجل تعلقا بابنه وحبا له أنه ورث عنه قوة العزم وصلابة الرأى وثبات الجنان

والآن تقضى هذه الجريمة التى اقترفتها زوجه على كل تلك الذكريات السامية حول ابنه وذلك الإعجاب الذى يجنه الرجل لوحيده

وأمسك الرجل النحس رأسه الثائر بين كفيه كأنه يمنعه من الانفجار ، وسرت حمى الغضب فى دمه فتمتم وهو فى تلك الحال من اليأس والضعف والمرض

— سأنتقم لنفسى ... سوف أثأر لشرفى ...

ولكن كيف ؟ أيقتل ذينك اللذين لوثا اسمه ولطخا شرفه وكيف السبيل إليهما وهذه الفراسخ العديدة تفصلهما عنه . فلا هو بمستطيع أن يبلغهما ، ولا هما ببالغيه قبل أن يموت ... وأوغل فى سبل الانتقام الكثيرة المتشعبة ... وأغطش الليل ولما يهتد فكره إلى سبيل يبلغه طيته فيشفى غليله ... واستلقى على الفراش بقلب ممزق وأضلع تكتنز نارا تكاد تأتى على بقايا جسمه المحطم

وعندما انصدع عامود الفجر أقبل طبيب الطوافة « المتيد » التى اعتلاها علم الأميرال طويلا ، ليعود رئيسه المليل ؛ وذعر لدى رؤيته وجه رئيسه الشاحب المتقع ، ودهش لتقدم المرض السريع فى يوم وليلة ... ونم وجهه عن ذعره ودهشته فقال الأميرال :

— قل إنى انتهيت يا دكتور

لم يضع الأمل بعد يا سيدى ... إنك فى حال سيئة ولكن ...

— لا تراوغنى : لقد صممت للموت مراراً ، ولا أود أن يأخذنى هذه المرة على حين غرة . قل الحق إنى أصرك ...

فظل الطبيب صامتاً لا ينبس دقيقتين قال بعدها :

— سيختارك الله هذا المساء على الأكثر يا سيدى إن لم تحدث معجزة

وتلقى الأميرال الصدمة بكل ثبات ... قال :

— حسن ... وستعودنى طبعاً مرة أخرى ... أليس كذلك ؟

— بالتأكيد ياسيدى الأميرال. ألا تحب أن تخطر سيدتى المركيزة؟

— رأى جدوى فى ذلك وهى فى نيس. ثم إنى لا أود أن أحملها الحزن فجأة. إنها تسلم أنى مريض، وستعرف على كل حال أنها ترملت، ولكن يجب أن يكون هذا بعد أن أموت

فانسحب الطبيب

وقابله باتريك لدى الباب فقال له:

كيف أبى؟

فلم ينبس الطبيب بل أجابت عنه عيناه، فأسرع الصبى نحو أبيه بقلب جزوع. فنهض الأميرال بجهد جهيد على مرفقه وقال:

— ادن منى يا بنى. إن لى حديثاً معك ... إنك فى الثانية عشرة من عمرك يا باتريك، ولكنى مضطر أن أحدثك كما أحدث رجلا

ولم يأخذ منهما الحديث طويلا. ولكن حينما انتهى ومضت عينا الصبى بريق من نار، وتثلج بدنه حتى كأنما انتقلت برودة الاحتضار من بدن أبيه إلى بدنه. وفى أثناء هذا الوقت القصير انتقل فجأة من طور الطفولة إلى طور الرجولة، وما تحمل من متاعب وأعباء

وفى السنة التى تلت ذلك، أى بعد موت الأميرال بعشرة أشهر أو نقل راح الناس يلغطون بقرب زواج أرملته من الشاب الوسيم القسيم فوشيرون. تناقلوا ذلك فيما بينهم فى غمز ولمز كأنما كان ذلك عين ما يتوقعون. ويبدو أن العاشقين قد آثرا بعد علاقتهما الدنسة الآثمة أن يرتبطا بعلاقة يقرها العرف والدين

ووصل الكابتن فوشيرون ذات صباح إلى القصر المشيد حيث تنتظره المركيزة مع ابنها بعد إذ قضى زوجها نحبه

وعند ما منع النهار وارتفعت الشمس دخل باتريك على أمه يحمل من الأعباء ما ينوء به عمره الصغير. قال لها:

— أحقا أنك تعدين العدة للزواج من الكابتن فوشيرون يا أماه؟

فأجابته بصوت مضطرب

— من أبلغك هذا؟

لم ينبس الغلام. فاستطردت المرأة

— على كل يجب ألا يستجوب الغلام أمه

— إنى لا أقبل مهما يكن الأمر أن يشغل الكابتن فوشيرون مكان أبى

لا تقبل! ماذا تقصد بهذا المراء؟ ثم أشارت إلى الباب ماضية واستأنفت

— أخرج من هنا حالا ياسيدى

فانصرف من لدنها إلى غرفته، ثم غادرها بعد بضع دقائق إلى غرفة فوشيرون واقتحمها دون استئذان واضعاً إحدى يديه فى جيب بنطلونه

وكان فوشيرون يحلق لحيته أمام مرآة، فاستدار نحو باتريك وقال!

— إن اللياقة تقضى بدق الباب قبل الدخول

إنه بيتى يا سيدى، ومن حق أن أدخل أية غرفة فيه بدون دق ولا استئذان، ثم إن لى حديثاً معك

— لك حديث معى؟ تكلم

— إنى أعلم سبب وجودك هنا. وإن ما تبغيه لا يمكن أن يتم. ويجب أن ترحل الليلة على ألا تعود أبدا. إننى أمنعك من الزواج بأمى

— إنك مجنون ولا ريب أيها الطفل

— من الخير لك أن تطيعنى

— فشحب وجه فوشيرون من شدة الغضب. ورمضت عيناه من فرط الغيظ. وقال:

— أخرج أيها الغرير وإلا عركت أذنيك. واتجه نحو باتريك رافعاً يده فتراجع الغلام عنه ثم وأخرج من جيبه شيئاً كان يخفيه، مسدساً ورفع به يده. ضغط الزناد، فانطلق

فانشق صدر فوشيرون عن صرخة هائلة دوت فى سكون القصر العميق. وترنح ثم سقط جثة هامدة وقد اخترقت الرصاصة جبينه ...

وأقبلت المركيزة على عجل ورأت كل شىء ... ثم صرخت تقول بعد أن ألقت بنفسها على ابنها وجردته من سلاحه

— ماذا فعلت أيها الشقى؟

وتركها باتريك تأخذ منه السلاح ثم قال: وقد رآها ترنمى على الجثة تبكيها وتندبها!

— لقد أنبأنى أبى قبيل وفاته أن هذا الرجل عدو لى وعدو لك، وأوصانى بحمايتك من شره وغدره حتى ولو أدت الحال إلى قتله. وقد نفذت وصية أبى

ثم أشيع بين الناس أن الكابتن فوشيرون مات منتحراً

م ع